(٨) سيرة فردريك دوجلاس :

بقلم : بنجامين كوارليس

إن « سيرة فريدريك دوجلاس » التى لاتزيد فى حجمها عن كتاب من مائة وخمس وعشرين صفحة والتى ظهرت فى ربيع عام ١٨٤٥ تعد علامة مميزة للحرب الأدبية التى أعلنت ضد الرق . وقد حصلت على المكانة الأولى وسط مايقرب من مائة سيرة للعبيد كتبت لكى تنشر فى كتب ، تماماً كما حاز مؤلفها أعلى مكانة بين كتاب الزنوج الذين كرسوا حياتهم لمهاجمة الرق بعنف . وكان البيع والتوزيع على نطاق واسع قد جعل من سيرة دوجلاس واحدة من أكثر كتابات الدعاية الإصلاحية تأثيراً ونفوذاً فى الأدب الأمريكى . فقد عالجت القضية الملحة التى تمثلت فى الرق الإنسانى وهى القضية ذات الطاقة المتفجرة التى قسمت الأمة كلها عبر خطوط فصلت مابين الولايات الشمالية حيث لم يعد للرق وجود والولايات الجنوبية حيث كانت الحاجة ملحة للعمال السود الذين يقومون بإنتاج القطن وغيره من المنتجات الزراعية .

وكعمل أدبى كلاسيكى تثير « سيرة دوجلاس » الدهشة إذا ماعلمنا مَنْ آباء المؤلف وأجداده ؟ فحتى الوقت الذى نشر فيه الكتاب كانت معظم حياة دوجلاس قد ضاعت فى أرض الرق التى تعيش فى ظلال غامضة :

ولد عام ١٨١٧ فى ميريلاند ، وبمجرد أن بلغ الحادية والعشرين من عمره هرب من سيده إلى نيوبدفورد فى ولاية ماساتشوستس ؛ وهناك لمدة أربع سنوات مارس عدة وظائف غريبة : فقد وقفت التفرقة العنصرية فى سبيل حصوله على وظيفة عامل فحم ، ولكن هذا لم

يسبب له متاعب فى إحراز الخطوة العملاقة التى قذفت به من الرق إلى الحرية .

وكان أغسطس عام ١٨٤١ بمثابة نقطة تحول فى حياته عندما حضر فى نانتاكيت بولاية ماساتشوستس اجتماعاً للمطالبين بإلغاء الرق ، وهم جماعة من الرجال والنساء المتحمسين الذين لم تكن مناهضتهم للرق أقل من عنفهم وخشونتهم فى معاملتهم لملاك العبيد . وبينما كان دوجلاس جالساً بين جمهور المستمعين متتبعاً لكل مايدور . سأله أحدهم أن يدلى بشىء عن تجاربه قبل أن يهرب . كانت كلماته مترددة وجلة ، لكنه اكتسب الثقة والثبات فى الحديث عندما استخدمته جمعية ماساتشوستس المناهضة للرق للتفرغ تماما للعمل كمحاضر . وفى السنوات الأربع التالية رسخت مكانة الشاب والعبد السابق كأحد محاضرى الجمعية الذين فازوا بجوائزها . وقام بالجولة الإصلاحية مع اثنين من أشهر مناهضى الرق فى نيوإنجلاند وهما : الخطيب النارى وليم لويد جاريسون وزميله وصديقه الحميم وندل فيليبس الخطيب الحجة الذى لايشق له غبار . وبالطبع فقد ظهرت الكلمات المهورة بإمضاء جاريسون وفيليبس فى الصفحات الأولى لكتاب دوجلاس حيث قام الأول بكتابة تقديم الكتاب فى حين أمده الآخر بخطاب كان بمثابة مقدمة تفصيلية له .

وقد أدى نشر « السيرة » إلى حصول دوجلاس على شعبية فائقة فى قارتين . وكان ذلك هو كل مايحتاج إليه . ومنذ ذلك الوقت أصبحت قدراته الذاتية المعترف بها كخطيب وكاتب كافية للاحتفاظ باسمه لامعا أمام الجمهور . وكان اسمه من أهم الأسماء ارتباطاً بالأحداث الصاخبة فى تاريخ الشخصيات الأمريكية البارزة .

وفى عام ١٨٤٧ أى بعد عامين تقريباً من التنقل فى الجزر البريطانية عاد إلى أمريكا ، وأصبح محرراً لمجلة أسبوعية مناهضة للرق ، وهى المجلة التى استمر فى إصدارها ستة عشر عاماً .

وفى عام ١٨٤٨ قام بدور بارز فى مؤتمر سينيكا فولز فى نيويورك الذى افتتح رسميا حركة حقوق المرأة فى أمريكا . وفى أثناء الحرب بين الشمال والجنوب قام بتجنيد الفرق للقتال فى صف الشمال ، وحث الرئيس أبراهام لينكولن لكى يقضى بكل قوة على الرق . . وبعد الحرب حصل على مراكز رفيعة على أيدى ثلاثة رؤساء متتابعين للجمهورية : فقد أصبح بدوره مديراً لمنطقة كولومبيا التى فيها العاصمة واشنطن ، ومسجلاً لإنجازات المنطقة التاريخية ، ثم وزيراً مفوضاً للولايات المتحدة فى هاييتى .

أما عن السيرة الذاتية التى منحت دوجلاس جواز المرور إلى مكانته الرفيعة الراسخة فإنها

تنتمى إلى نوع أدبى بارز عرف فى الأدب الأمريكى باسم مدرسة « الهاربين البطوليين » وفى بعض الحالات كانت هذه الكتابات التى تدور حول العبيد أو التى كتبها العبيد أنفسهم تبالغ فى تصوير الشخصيات والمواقف ، وتعتمد فى كل ثقلها على تشخيص الحالات المرضية فى ذاتها ، لذلك تزخر صفحاتها بالشخصيات مثل السادة ذوى الميول السادية والمتفرجين الذين يكتفون بالملاحظة المتعالية .

ولم تفشل روايات كثيرة فى التحدث عن المعاملة الخشنة والعقوبات القاسية التى انهالت على العبيد ، وقد فشلت روايات قليلة جدًّا فى وصف مثال ما على الأقل يبلور تشتت الأسر ، وخاصة انفصال الأم العبد عن طفلها .

ولسنا فى حاجة إلى الجدل لإثبات أن روايات العبيد كانت ذات هدف دعائى : فعلى كل حال كانت سلاحاً فى الحرب المشتعلة ، وكان هدفها الذى لم تحد عنه هو تحطيم الأغلال التى تقيد العبيد . وكإنجاز فى ميدان التاريخ الاجتماعى فإن هذه السير الذاتية وغير الذاتية التى كتبها العبيد السابقون قد ساهمت بدور كبير فى الحملة التى شنها الأدباء المناهضون للرق ، وشكلت ضغطاً عاطفيا ذا أبعاد ملحوظة فى الولايات الشمالية .

و « سيرة دوجلاس » تشبه إلى حد كبير السير الأخرى فى نظرتها العامة : لقد صممت على أن تكون دفاعاً عن الحرية الإنسانية .

وفى وصف الكاتب لخبراته المرتبطة بالرق فإنه يتبع أسلوب السرد القصصى أساساً ، فإن كل حدث نتيجة طبيعية للحدث الذى سبقه ، وبداية للحدث الذى يليه وهكذا . لكن فى « سيرة دوجلاس « ملامح بارزة ومتميزة ، وخصائص محددة من وجهة نظر المؤرخ الأدبى تمنح هذا الكتاب مكانة راسخة ومرموقة . فهو كتاب آسر على مستويات عدة .

وبداية فإن الكتاب كله كان بقلم دوجلاس نفسه . وكان واحداً ضمن مجموعة كتب بلغت ستة عشر ألفها عبيد سابقون بأنفسهم . أما الكتب الأخرى فقد كتبها أساساً مناهضو الرق من البيض الذين تخفوا وراء أشباح سوداء !

وفضّل المصلحون المعادون للرق إلى حد كبير أن يكتب العبيد السابقون قصصهم بأنفسهم ، وبذلك حاولوا القضاء على فكرة الشعور بالنقص التى طاردت الزنوج ، من هنا نبعت « سيرة دوجلاس » كعمل لم يتم ترشيحه من خلال عقل مؤلف آخر ، وكان الترحيب به مضاعفاً فى دوائر الإصلاحيين .

وقد علم دوجلاس نفسه : وذلك بمحو أميته بدون أن يلتحق بالمدرسة ولو ليوم واحد ! وفى الأيام التى عاشها كعبد كانت سيدته قد بدأت فى تعليمه الحروف استجابة لرجائه الملح ، وعلى أمل أن يأتى اليوم الذى يستوعب فيه الإنجيل . وعندما وضع سيده نهاية لتعليمه خوفاً من أن يضعف من سيطرته عليه ، يقول دوجلاس فى «السيرة»: إنه قام برشوة الصبية البيض فى شوارع بالتيمور لكى يعلموه ! وفى الوقت الذى انضم فيه دوجلاس إلى الجماعات المناهضة للرق كان فى مقدوره القراءة والكتابة ، وكان سريعاً فى تحسين مهاراته الأساس إلى حد ما. وكانت منصة الخطابة المعادية للرق بمثابة مدرسة لتدريب الكتاب لاتقل فى أثرها عن تدريبها للخطباء . وكانت علاقته الحميمة بأفاضل المتعلمين من أمثال وندل فيليبس دافعاً للعبد السابق إلى الأمام وهو الذى لم يتصل إطلاقاً بالازدهار الأدبى فى نيوإنجلاند . وبعد شهور قليلة من انضمامه إلى المناهضين للرق داوم على إرسال خطابات إلى الدوريات الأسبوعية التى يشرفون على إصدارها وخاصة مجلة «المحرر» التى أصدرها وليم لويد جاريسون . وبعد أربع سنوات تقريباً من التفرغ الكامل لمناهضة الرق تمكن دوجلاس من أن يعبر عن أفكاره بأسلوب ذكى لماح .

ولسيرة دوجلاس الذاتية قيمة أخرى تتمثل فى قدرتها على الإقناع . ومن الواضح أن روايات العبيد كانت مختصرة وتستمد مضمونها من المستندات الرسمية ، فهى تؤلف بدون الاستفادة من المذكرات والخطابات وسجلات المشروعات وأرشيف المقاطعة أو العودة لزيارة بيت المزرعة القديمة لمطابقة المعلومات الواردة مطابقة عملية وفورية على الواقع ، ولكن إذا كان لروايات العبيد أن تصدق ، وكان ذلك هو الاختبار الحاسم على نجاحها – فإنه يتحتم عليها أن تكون دقيقة بقدر الإمكان . من هنا وبصرف النظر عن حفنة من الألاعيب الأسلوبية فإن روايات العبيد تسعى نحو الأصالة .

وبالتأكيد فإن هذا ينطبق أول ما ينطبق على ذلك العمل الذى أنتجه دوجلاس : فقد أقامه بحكمة على معلومات محددة ومنظمة عن الشخصيات والأماكن ولم يكن أى منها من صنع خياله ، بل يجسد الكتاب إحساساً بالصدق والإخلاص يمنحه كثيراً من قوته . وبالطبع فإن أحد الأسباب التى أدت بدوجلاس لكى يؤلف كتابه كان لنفى تهمة الاحتيال عن نفسه ، وهى التهمة التى أشاعت أنه لم يكن عبداً على الإطلاق ! وبعد أن نشر الكتاب بفترة يسيرة قام

برحلة إلى الجزر البريطانية خوفاً من أن يسعى سيده السابق إلى العودة لامتلاكه مرة أخرى ، وخاصة أن أماكن وجوده الآن لم تعد مجهولة .

وبحكم إيمانه بالحقيقة كما هى فقد آلى دوجلاس على نفسه أن يتحمل كل المعاناة فى أن يكون دقيقاً بالقدر الذى تسمح به كل من ذاكرته ومعلوماته . ومع بعض الاستثناءات القليلة فإنه يمكن التعرف بسرعة على البيض من الأشخاص الذين ورد ذكرهم على صفحات كتابه : كان سيده الأول الكابتن آرون أنتونى شخصية معروفة تماماً فى الشاطىء الشرقى لميريلاند بحكم كونه الراعى العام لعائلة لويدز أوف واى أبرز عائلة فى المقاطعة . وكل اسم ذكره دوجلاس لأى رجل أبيض عامله فى مقر إقامته الثانى (سان مايكلز) يمكن التحرى عنه فى سجلات المقاطعة بدار إيستون للقضاء . وفى السنوات التى قضاها دوجلاس كعبد فى مدينة بالتيمور ورد ذكر ستة رجال بيض فى «سيرته» ، منهم خمسة ورد ذكرهم فى دليل المدينة فى الفترة التى يتكلم عنها دوجلاس ، وفى حالات قليلة لم يستطع دوجلاس أن يلتقط أويسجل الاسم بوضوح ، أو أنه أساء تسجيله بالهجاء الصحيح . ومع ذلك فإنه لأمر ذى دلالة لم يحاول أحد التشكيك فى وجود أى شخص ذكر فى « السيرة » .

إن دوجلاس يكتسب ثقة القارئ ذى النظرة الفاحصة بتجنبه تسجيل الملاحظات ، كما وردت بالنص على لسان شخصياته ، فقد أحس أن الحقيقة مهما كانت فاقدة للجمال ويمكن أن تفقد الرواية رونقها إلا أنه تجنب استخدام الحوار ذى الصياغة المحكمة والأحاديث المحددة مسبقاً ، واستبدل الكلمات التى يتذكرها بالكلمات التلقائية .

ومن المميزات التى تتمتع بها « السيرة » تلقائيتها السلسة ؛ إذ يستخدم دوجلاس أسلوباً من النثر البسيط المباشر الذى تخلص من كل التلميحات الأدبية ، بل بدون فقرات مقتطفة بالنص تقريباً : أى باستثناء فقرة من جون جرينليف ويتاير ، وسطرين من « هاملت » ، وسطر واحد من وليم كوبر . أما التفاصيل فهى محددة بدقة ، ويبرز أحد عناصر أسلوبه راسخاً فى السطور الافتتاحية ، ودليلاً على لماحيته :

«ولدت فى تاكاهو بالقرب من هيلز بورو ، أى حوالى اثنى عشر ميلاً من إيستون فى مقاطعة تالبوت بولاية ميريلاند . وليس لدى معلومات دقيقة عن حقيقة عمرى ، فلم يحدث قط أن اطلعت على السجل الأصلى الذى يحتوى على سنى . وإلى حد بعيد فإن معظم العبيد يعرفون عن أعمارهم القدر اليسير الذى تعرفه نفسه الخيول عن أعمارها ! وإنها لرغبة معظم

الأسياد – فى حدود معرفتى – أن يحتفظوا بعبيدهم جهلاء هكذا . ولاأتذكر أننى قابلت عبداً استطاع أن يخبرنى بحقيقة يوم ميلاده . إنهم نادراً مايحددونه بدقة تزيد عن تحديدهم لموسم الزراعة ، وموسم الحصاد ، وموسم الكرز ، وموسم الربيع ، وموسم نهاية العام ! »

وترجع قوة التأثير الأدبى الذى تتمتع به « السيرة » إلى قدرتها على إثارة الأشجان . إن دوجلاس يحتقر إحساس العطف والشفقة لكن صفحاته تثير التعاطف الوجدانى كما هدف إلى ذلك تماماً . وكانت الفقرة التى كتبها عن أمه ذات تأثير عميق ، فقد بدأ الحالة النفسية التى تثيرها مع الجملة الافتتاحية واستمر فى التصاعد بها فى كل سطر :

«لم أر أمى قط إلا مرات قليلة ، فلم أعرفها كأم أكثر من أربع أو خمس مرات فى حياتى ، وفى كل مرة من تلك المرات كنت أمكث معها برهة وجيزة وفى ظلام الليل . فقد قام شخص يدعى مستر ستيورات بتأجيرها ، وعاشت على بعد حوالى اثنى عشر ميلاً من البيت الذى أخدم فيه . وكانت تقوم برحلاتها تحت ستار الليل لكى ترانى بعد أن تقطع المسافة كلها على قدميها وبعد أن تنتهى من عملها طوال اليوم ، لقد كانت ضمن الأيدى الأجيرة فى الحقل ، والجلد هو العقوبة التى تنهال عليها إذا لم تكن فى الحقل عند شروق الشمس ! كانت ترقد معى وتهزنى إلى أن أنام ، ولكن قبل أن أستيقظ بمدة طويلة تكون قد رحلت ! أما عن الاتصال الذى حدث بيننا فكان قليلا للغاية . وسرعان ماوضع الموت حداً لتلك العلاقة البسيطة التى تمتعت بها فى حياتها : فقد ماتت ولم يتجاوز عمرى حوالى السابعة . »

ولاتعتمد « السيرة » على الهروب إلى ذكريات الماضى ، بل تكشف بوضوح عن أن مؤلفها ذو قدرة على استخدام عقله فى الإسقاطات والانعكاسات . إن منظر أسطول السفن فى خليج تشيسبيك وهو ينطلق إلى عرض البحر ذات صباح أحد – يثير داخل العبد الصغير إحدى الفقرات الزاخرة بالمرارة :

« إنكم أحرار . . تنطلقون من معاقلكم . . لأنكم أحرار ، أما أنا فأرسف فى أغلالى لأننى عبد ! . . إنكم ملائكة الحرية ذات الأجنحة السريعة التى تطير حول العالم ، أما أنا فحبيس قيود من حديد ! . . لقد أقلعت السفينة السعيدة ، إنها تختفى فى البعد الداكن فى حين تركت أنا فى أحر جحيم من الرق الذى لاينتهى ! »

وتفتقر « السيرة » إلى روح الدعابة واللمسات الخفيفة : فنغمتها ناقمة نائحة طوال الوقت ، وكل الطرق تؤدى إلى هذه النهاية : فعلى سبيل المثال يقدم دوجلاس وصفاً حياً مفصلاً

لأسبوع الإجازة الذى بين عيد الميلاد ورأس السنة الجديدة ، وهو الأسبوع الذى ينغمس فيه العبيد فى الألعاب الرياضية والانطلاق المرح ، لكنه يعتبر هذه العطلات بمثابة خداع كبير ، إذ إنها لاترجع إلى روح الأسياد المحبة للخير ، بل تقام فقط لأثرها فى تثبيط روح التمرد . وعلى المستوى نفسه ترى « السيرة » أن الغناء الذى يرفع العبيد عقيرتهم به ليس دليلاً على رضائهم بل هو مقياس لتعسهم !

وربما يصور دوجلاس فى أكثر الفقرات إثارة للعواطف فى كتابه هذه الأغانى على سبيل تقديم شهادته ضد الرق ، وإقامة صلاة من أجل الخلاص : يقول فى إحدى الفقرات : « إن مجرد إعادة ذكر هذه الأغانى الآن يعذبنى ، وبينما أقوم بكتابة هذه السطور أشعر بالأحاسيس والدموع تشق طريقها حتى أسفل وجنتى ! »

و « السيرة » موجزة جداً وذات مواقف منفصلة بعضها عن بعض لدرجة أنه يستحيل عليها تطوير شخصيتها بأفضل مما يفعل أى تسجيل تاريخى للأحداث ، لكنها تصل إلى منتصف الطريق بتقديمها صوراً محددة بارزة مثل صورة أوستن جور المراقب العام الذى قيل لنا عنه بل الذى جعلنا نشعر بأنه الرجل المناسب تماماً لمثل هذا المكان ، أوالمكان المناسب تماما لمثل هذا الرجل ! أما إدوارد كوفى فكان مؤدباً للعبيد: أى إن وظيفته تمثلت فى فرض النظام على الخارج عليه ، وهو شخصية قاسية وماكرة على مستوى شخصيات ديكنز نفسه .

وعلى الرغم من كل النقد الذى صبه دوجلاس على ملاك العبيد وأجرائهم فإنه لم يعدم ملاحظة بعض ثغرات الضعف المعينة بين العبيد أنفسهم . فلم يسمح لنفسه قط أن يتغاضى عن الحقائق المثيرة للاشمئزاز ؛ وكانت هذه خاصية مميزة لحياته العامة : فقد وصف المشاجرات التى نشأت بين عبيد الكولونيل لويد وعبيد جاكوب جيبسون بقوله :

« مثل العبيد مثل الآخرين من البشر ؛ وأوجه التحيز الراسخة متفشية تماماً بين هؤلاء الآخرين الذين يعتقدون أنهم متميزون عن كل من هو خارج زمرتهم . وتحت تأثير هذا التحيز فإن كثيرين من العبيد يعتقدون أن أسيادهم أفضل من أسياد العبيد الآخرين . كانت هكذا الحال فى مزرعتنا عندما تقابل عبيد الكولونيل لويد وعبيد جاكوب جيبسون ، وهم نادراً مايفترقون بدون مشاجرة موضوعها أسيادهم !

فيقوم عبيد الكولونيل لويد بالتمجيد المتشنج لسيدهم على أساس أنه أغنى رجل فى المقاطعة فى حين يصرخ عبيد السيد جيبسون منادين بأن سيدهم أكثر القوم وجاهة وأناقة . وغالباً ما

كانت هذه المشاحنات تنتهى إلى صدام وصراع . وقد ظن العبيد أن عظمة أسيادهم يمكن أن تنتقل إليهم . ووضعوا فى اعتبارهم أنه شىء سيئ بما فيه الكفاية أن يكون الإنسان عبداً ، أما أن يكون عبداً لرجل فقير فهذا هو العار بعينه ! »

وإذا كانت « السيرة » تقص علينا بالتفصيل تجارب دوجلاس كعبد – فإنها لا تحكى لنا شيئاً عن كيفية خروجه من ربقة العبودية . وكان هذا الحذف متعمداً ، لأن دوجلاس نقد بشدة العبيد الذين أعلنوا على الملأ الحيل التى استخدموها فى الهروب . وفى رأيه أن هذا الأسلوب قد تحول إلى ورقة رابحة فى أيدى الأعداء عندما وضعوا القيود الصريحة على السفر بالسكك الحديدية . كتب يقول :

« كان هدفى أن يظل صاحب العبد الذى لا يعرف قلبه الرحمة جاهلاً بكل وسائل الهروب التى ينتهجها العبد » .

ولم يكن أسلوب دوجلاس فى الهروب دراماتياً أومبتكراً بصفة خاصة ، فقد ركب قطاراً من بالتيمور إلى فيلادلفيا مستخدماً جواز مرور تمثل فى « الأوراق الحرة » لصديق زنجى لم يكن عبداً ، لكن مهما كانت وسيلة الهروب عادية للغاية – فإن دوجلاس لم يفصح عنها حتى وضعت الحرب الأهلية أوزارها .

وكان امتزاج الخصائص الأدبية « للسيرة » بخطها الروائى القوى قد جعل منها كتاباً يقبل الجميع على شرائه . وفيما يختص بالمدى الذى يمكن أن تصل إليه أى منشورات معادية للرق فإن سيرة دوجلاس الذاتية كانت حدث الموسم الأدبى فى الأسابيع الأولى لنشرها . وقد طبع من « السيرة » فى طبعتها الأولى خمسة آلاف نسخة بيعت فى أربعة شهور . وفى مدى عام طُبعَ ألفا نسخة فى أربع طبعات أخرى . وفى الجزر البريطانية ظهرت خمس طبعات ، اثنتان فى آيرلندا عام ١٨٤٦ وثلاث فى إنجلترا فى عامى ١٨٤٦ و١٨٤٧. وبعد مرور خمس سنوات على ظهورها كان إجمالى النسخ التى طبعت من السيرة فى العالم المتحدث بالإنجليزية حوالى ثلاثين ألف نسخة . وفى عام ١٨٤٨ ظهرت طبعة فرنسية بغلاف خفيف كانت تباع فى أكشاك الصحف . وأدت هذه المبيعات النشيطة للكتاب إلى مانشر عنه فى الصحف – وعلى القبول الطيب له . ولم تستخدم الصحف المناهضة للرق فى وصفه سوى أفعل التفضيل وسمحت لنفسها أن تعيد نشر فقرات مطولة منه مراراً وتكراراً ، لكنه فاز أيضاً بعرض طويل فى الصفحة الأولى من جريدة « النيويورك تربيون » التى لم تعرف حدوداً لها فى تقريظه . قالت : « إذا اعتبرناه مجرد سرد

روائى فإننا لم نقرأ قط سرداً أكثر منه بساطة وصدقاً ودقة ودفئا فى العواطف الأصيلة » .

وعبر الأطلنطى كانت الاستجابة متشابهة لذلك إلى حد كبير . فقد وصفته مجلة « أطلس » اللندنية بأنه «كتاب صغير ومرموق جدًّا . . وواحد من الكتب التى تثير أقصى طاقات الخيال إثارة وإندماجاً » وفى رأى مجلة « ميركورى » التى تصدر فى بريستول : « إنه « سيرة » مثيرة بأسلوب أكثر عمقاً من الهدف الذى قصد إليه دوجلاس أساساً . وقد ذهلت جريدة « تشيمبرز » فى إدنبرة من قدرة الكتاب على إيراد الحقيقة كاملة ، وعلقت بقولها : إنه يمكن « أن يساعد إلى حد لا يمكن تجاهله فى نشر الأفكار الصحيحة عن الرق وشروره الماثلة فعلاً » .

أما مارى هاويت المحررة المساعدة لجريدة « هاويت » فقد وجدت فى السيرة «أجمل ما يمكن» أن يكتب ، بل ليس هناك مايعيد أكثر إثارة للعواطف منها » .

أما الدورية الأمريكية المعروفة باسم « ليتلز ليفينج إيج » فقد قابلت بالتقدير اكتساح السيرة للجزر البريطانية بعد سنة من تداولها وقالت : « إن المحصلة النهائية تؤكد أن هناك مالايقل عن مليون شخص فى بريطانيا العظمى وفى آيرلندا استطاع الكِتاب والمعلقون عليه أن يملئوا حياتهم إثارة ! »

وكان التداول الواسع للسيرة قد دمغها بأنها عمل ذو نفوذ بالغ استطاع أن يغير آراء كثيرة تاركاً تأثيره يسرى فى الرأى العام .

وفى أمريكا ضرب بصفة خاصة على وتر حساس : لقد برز على السطح فى عصر تميز بالحركات الإصلاحية : من حقوق المرأة والسلام والاعتدال ، والمطالبة بإصلاح السجون ، والتعليم العام فى المدارس ، وتجارب الحياة الجماعية وغيرها . وفى مقدمة هذه المشروعات التى تهدف إلى تحسين الوضع الإنسانى برزت حملة إلغاء الرق . وفى عصر إصلاحى كهذا أصبحت أكثر أوجه الإصلاح تمرداً وثورية .

وكان الدور الأساس لحركة إلغاء الرق نتيجة لتأكيدها على الحقوق المدنية والالتزامات الخلقية . وفى أثناء العقدين اللذين فى منتصف القرن التاسع عشر كانت المشاعر المعادية للرق قد انتشرت على نطاق واسع فى العالم الغربى لكنها برزت فى الولايات المتحدة بوضوح أكثر من أية بقعة أخرى : فقد تبنى المعادون للرق رفع لواء الحريات المدنية : حرية الكلام وحرية الصحافة وحق الالتماس والشكوى .

وهكذا ربطوا أنفسهم بالتقاليد العظيمة للحرية التى سعوا إلى ترجمتها إلى حقوق مكتسبة

سواء على المستوى العالمى أوالأمريكى . وأصر المطالبون بإلغاء الرق على أن العبودية هى قضية العصر الأخلاقية العظمى : فهى خطيئة فعلية ضد الله والإنسان ! وفى عصر كان أكثر تأثراً بالكنيسة من عصرنا هذا نادى مناهضو الرق بأنه معاد للمسيحية ، لأن يسوع علم البشر نظرية الإخاء الإنسانى . وعلى أيدى بعض مؤيدى إلغاء الرق تبنت الحركة نغمة وأحياناً مضمون الإحياء الدينى . وكان هذا الجو الإصلاحى هو الوسط الذى وجدت فيه « سيرة دوجلاس » مكانها الصحيح ، فقد عكست وعمقت حالة نفسية وفكرية كانت منتشرة بالفعل ، ولذلك فمن جهة الفكرة والتركيز والروح تعد « السيرة » كتاباً أمريكياً بمعنى الكلمة . لقد رسخت مرة أخرى تراث الحرية فى هذه البلاد بوضع مرآة أمام مواطنيها وحثهم على رؤية أنفسهم على حقيقتها بلا نظارات خادعة . وكانت « السيرة » بمثابة الإعلان الذى يحتاج إليه المصلح الأمريكى الحقيقى ، إذ إنها عبرت عن إيمان بالحرية سيجد كل من اطلع عليه صعوبة بالغة فى إنكاره .

وعلى الرغم من أن دوجلاس لم يكن من المترددين على الكنيسة فإن « سيرته » تعكس نغمة خفية نابعة من الإيمان بالعدالة القائمة على الثواب والعقاب ، فإن مايبذره الإنسان إياه يحصد . وعندما أصبحت جدته لأمه عديمة النفع بالنسبة لسيدها وضعت فى كوخ صغير فى الغابات لكى تدافع عن وجودها الضعيف إلى أن تموت وقد حدث هذا فعلاً !

حرك هذا الحديث دوجلاس فتساءل فى بلاغة : « أين العدل الإلهى لكى يقضى على كل هذه الأشياء ؟ » وإذا كانت « السيرة » قصيرة على ماهى عليه فقد كرست ثمانى صفحات كملحق لتصحيح أى سوء فهم يظهر المؤلف على أنه مناهض للدين . كان دوجلاس يميز بين نوعين من النظريات : كتب يقول : « إننى أحب المسيحية النقية المسالمة غير المنحازة التى قدمها المسيح إلى البشر . لذلك فإننى أكره مسيحية هذه البلاد ، لأنها تتغاضى عن الفساد وامتلاك العبيد وجلد النساء وخطف الأطفال من المهد ، وتزخر بالتعصب والرياء ! » .

وكان لسير العبيد مثل تلك التى كتبها دوجلاس أثر عميق فى الشمال الأمريكى : فقد وجد معظم القراء فى شهادتها إقناعاً كاملاً . وخارج نطاق الجنوب حصل معظم الناس على معلوماتهم وانطباعاتهم عن الرق من قراءة قصص العبيد الفارين من أمثال دوجلاس .

وهكذا عندما كتبت هارييت بيتشر ستو « كوخ العم توم » فى عام ١٨٥٢ بلغت مبيعاتها أرقاماً مذهلة وبسرعة فائقة كنتيجة مباشرة للجمهور الجاهز الذى أوجدته بالفعل الأضواء السابقة التى تركزت على سير العبيد من أمثال دوجلاس .

وإذا كان الرئيس أبراهام لينكولن قد حيّا المسز ستو على أنها « السيدة الصغيرة التى أشعلت هذه الحرب الكبيرة » فإن بعض هذا الدين يشارك فيه بالتأكيد هؤلاء العبيد السابقون الذى ملئوا الرأى العام بالصخب الهادر حول قصصهم والذين خلقوا الصورة المعادية للرق ، وهى الصورة التى مهدت لظهور أناس مثل مسز ستو وأبراهام لينكولن .

وقد امتد تأثير « السيرة » عبر الأطلنطى جارفا معه الجزر البريطانية . هنا أيضا أصبحت التربة صالحة لهذه الأفكار . وفى صيف عام ١٨٤٥ عندما بلغ دوجلاس وسيرته الجزر البريطانية تلقائيا – استقبل الاثنان بالترحيب من القلب . ولعشرين شهراً نال دوجلاس كل مظاهر الحفاوة والتكريم سواء فى إنجلترا أوفى آيرلندا أو أسكتلندا ، سواء فى المدن الكبيرة أو عند مفترق الطرق الهادئة . وقد ترأس عمد المدن الاجتماعات التى عقدت للاستماع إليه . وتناول الغذاء على مائدة الزعيم العظيم المناهض للرق توماس كلاركسون الذى مات بعد ذلك بشهر واحد ؛ كما قضى إحدى الأمسيات مع الاقتصادى ورجل الدولة جون برايت وأخته .

وفى جولة دوجلاس فى الجزر البريطانية حمل معه كمية لابأس بها من الكتب للعرض والبيع . وعندما غادر إنجلترا عائداً لبلاده استمرت « سيرته » فى ممارسة تأثيرها ، وتقوية الشعور المعادى للرق حيثما يتم تداولها . وكانت العداوة البريطانية للرق الأمريكى قد أصبحت عاملاً مهماً فى أثناء الحرب الأهلية فى الولايات المتحدة عندما جعلت من المحال بالنسبة للجنوب أن يحصل على اعتراف ديبلوماسى من لندن . وكان العبيد السابقون ومعهم كتاباتهم قد أنجزوا الكثير فى خلق هذا الجو المشحون بمعاداة الرق عبر الأطلنطى ، ومن هؤلاء لايغفل أحد فردريك دوجلاس و« سيرته » .

وعلى سبيل التقويم النهائى لمدى الإنجاز الذى حققته السيرة يمكننا التحول إلى أيامنا هذه . إن هذا الكتاب الصغير أعيد طبعه أربع مرات فى السنوات الست الماضية ، وهى الفترة التى أقيمت فيها قنطرة فى عاصمة الأمة سميت باسم دوجلاس ، وتحول موقع منزله فى المدينة نفسها إلى ضريح قومى أقامته وزارة الداخلية فى الولايات المتحدة ، كما تم إصدار طابع بريد عليه صورة فردريك دوجلاس من فئة خمسة وعشرين سنتاً من النوع الدائم الذى تتداوله هيئة البريد فى الولايات المتحدة .

وقد بلغ الاهتمام بدوجلاس قمته فى العقد الماضى عندما اكتسبت مشكلة العلاقات بين

البيض والزنوج قوة دفع جديدة . ونظراً لجهاد دوجلاس الطويل ضد التفرقة العنصرية فقد تم تدشينه «كأبى حركة الحقوق المدنية» .

وبطبيعة الحال فإن السيرة تتحدث عن دور الزنوج فى الحياة الأمريكية ، وهو دور يحتوى على الصراع وعلى الانتصار غير الكامل بأى مقياس من المقاييس . وكإنجيل للرجل الأسود فإن «السيرة» كانت صيحة واضحة ووجدانية للتعبير عن رفضه وتطلعه . لكن «السيرة» لا توجه كلامها إلى الزنوج أو إلى الأمريكيين فقط ، إنها تتجاوب هى وضمير الإنسانية ، وهذا مايمنحها كثيراً من قوتها التى احتفظت بها مايزيد على مائة عام منذ ظهورها لأول مرة .

وفى حياة دوجلاس الطويلة التى بلغت الثامنة والسبعين استطاع أن يضيف إلى إنجازه المتعدد الجوانب سيرتين ذاتيتين أخريين بالإضافة إلى سيل من المحاضرات الرسمية ، والمقالات فى المجلات ، والافتتاحيات فى الصحف ، والرسائل التى بعث بها بصفة شخصية . وتميزت هذه الكتابات الأخيرة بتزايد الاتساع فى نظرته إلى الحقائق ، والعمق فى فلسفته الاجتماعية الحكيمة لكن لم تفوق إحدى هذه الكتابات على «السيرة» فى بلاغتها الحية ونظرتها الأخلاقية الشاملة . إنها تحتل مكانتها كواحدة من أكثر السير الذاتية إثارة فى الكاتالوج الشامل لحركة الإصلاح فى أمريكا !

معالم الثقافة الأمريكية

جون دوجلاس سيلى

جون دوجلاس سيلى هو أستاذ فقه اللغة والأدب وعضو هيئة التدريس بكلية الآداب بجامعة كونيتيكت فى مدينة ستورس حيث يقسم وقته بين التدريس وأنشطة البحث فى مكتبة ويلبور كروس الملحقة بمساكن الجامعة . وبحكم أن كونيتيكت هى مسقط رأسه فقد حصل على درجة الليسانس من جامعة ويسليان التى فى تلك الولاية .

كذلك حصل على درجاته العلمية المتقدمة بما فيها الدكتوراه من كلية كليرمونت فى كاليفورنيا .

وقد قام بعمل عضو فى هيئة التدريس بكلية الآداب جامعة كاليفورنيا فى بيركلى « ١٩٦٠ – ١٩٦٥ » وفى ديفيز « ١٩٦٥ – ١٩٦٦ » .

ومنذ فترة ١٩٦٤ – ١٩٦٥ عمل سكرتيراً ورئيساً لقسم الأدب الأمريكى التابع لاتحاد فقه اللغة بساحل المحيط الهادى . وقبل فترة عمله الحالى التى بدأت فى عام ١٩٦٦ اشترك فى مؤتمر مؤسسة دانفورث فى كولورادو سبرنجز بولاية كولورادو .